

كراسات المنتدى

Les Cahiers du FTDES

جويلية 2019

الكراس عدد 2

سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس

منذ 14 جانفي 2011

تعدد طرق الإنخراط و تنوع أشكال الإحتجاج

الكراس عدد 2

جويلية 2019

أسامة سليم

المدونون والتغيير الافتراضي.

النشأة، السياق، الأهداف

الملخص:

تتميز الثورات بثوارها، والحركات الاجتماعية بفاعليها، وسنحاول في هذه الورقة البحثية معالجة فئة تحتل مشهد الحركات الاجتماعية، وهم المدونون. من خلال ما قاموا به من توثيق لانتهاكات النظام وفضحه، ومعارضة سياسة الحجب والصنصرة والمراقبة قبل الثورة، أو من خلال معارضة التشريعات الجائرة بعد الثورة. الانطلاق من الفاعلين الجدد باعتبارهم مدونين ينشطون في فضاء افتراضي -مواقع التواصل الاجتماعي - ومدى تأثيرهم في الواقع اليومي هذا التناقض الذي ينطلق في تخوم مسلمات باعتبار المدونين فاعلين ومؤثرين، من خلال آليات تواصل هي الأكثر تطورًا وانتشارًا في تاريخ البشرية. أن يكون المدونون فاعلين في مسار سياسي أو مجرى تاريخي في سياق تطورات اجتماعية واكبوها. أين هم ثوار أمس، هل تمّ استبدال صور الثوار والمحتجين والمتمردين يصدحون بأعلى أصواتهم في المظاهرات والمسيرات بأقنعة وصور افتراضية تخفي وراءها مؤثرين في المسار الثوري والحركات الاجتماعية من خلال "تدويناتهم".

Abstract

Revolutions are characterized by its rebels, and social movements by its agents, and we will try in this paper to address the bloggers as a class that are in the spotlight of social movements, through their documentation and scandalization of the crimes and violations committed by the regime, their opposition to the policy of censorship before the revolution, or through their opposition to unfair legislation after the revolution. Starting from the idea that they are the new actors as in the virtual space - social networking sites - and from their impact on the daily reality, the paradox of being at one a blogger and influencer emanates from the most developed

and widespread communication mechanisms in the history of mankind. Bloggers are active in a political and historical course in the context of social developments that they have witnessed. Where are the revolutionaries of yesterday? Have the images of revolutionaries, protesters who speak with loud voices in demonstrations and rallies been replaced by masks and virtual images that hide the influential revolutionaries and social movements through their "blogging"?

"هل تونس جمهورية أم مملكة أم حديقة حيوانات أم سجن؟"

زهير اليحياوي

تحاول هذه الورقة البحثية معالجة إشكالية موعلة في الحداثة، وهي الانطلاق من الفاعلين الجدد باعتبارهم مدونين ينشطون في فضاء افتراضي -مواقع التواصل الاجتماعي - ومدى تأثيرهم في الواقع اليومي هذا التناقض الذي ينطلق في تخوم مسلمات باعتبار المدونين فاعلين ومؤثرين، من خلال آليات تواصل هي الأكثر تطورًا وانتشارًا في تاريخ البشرية. أن يكون المدونون فاعلين في مسار سياسي أو مجرى تاريخي في سياق تطورات اجتماعية واكبوها.

أين هم ثوار الأمس، هل تم استبدال صور الثوار والمحتجين والمتمردين يصدحون بأعلى أصواتهم في المظاهرات والمسيرات إلى أقنعة وصور افتراضية تخفي وراءها مؤثرين في المسار الثوري والحركات الاجتماعية من خلال "تدويناتهم".

بتاريخ أكتوبر سنة 2017، كان قد مرّ على الثورة البلشفية قرن، وقد وقع اعتبارها من قبل المؤرخين - باختلاف خلفياتهم الأيديولوجية - أعظم ثورة في العصر الحديث، ومنذ ذلك التاريخ إلى حدود كتابة هذه الأسطر برزت أمم وضمّرت أخرى، تلاشت حدود بين دول ونشبت عداوات بين أخرى، وتغيّر ثوار الأمس، صورة سارتر وسيمون دي بوفوار في ماي 1968، المعتصمون في انتفاضة الأقصى، ثورة شيوعي الأهوار في جنوب العراق، الفيتناميون وهم يشرعون صدورهم لرصاص الإمبرياليين، ومسيرات من برلين الغربية إلى نظيرتها الشرقية من أجل التوحيد. أواصر الالتقاء بين هذه الصور والحركات هي الحشود البشرية والشعارات وصخب الشوارع، وبمقارنة بسيطة مع تحركات القرن الواحد والعشرين، نجد أنفسنا أمام ضروب شتى من التمايز والتعارض، أصبح التجيش الشعبي من خلال تغريدات على تويتر، أو فيديوهات قصيرة لمدونين.

إذا كان التاريخ الإنساني رائعًا للغاية، فذلك تحديداً لأنه بالأساس موضع التحويلات التاريخية على حدّ عبارة الكاتب الفرنسي "جيل كيبال"، وباعتبار أنه موضوع التحويلات التاريخية، فهذا الاستيعاب الإبيستمولوجي ينطلق من ظرفية آنية، هي قرن العولمة وإلغاء الحدود، نحو عالم يكون قرية افتراضية كما تروج العولمة لنفسها، وما لا يتيح مجالاً للغرابة، أن يطلق على الثورة التونسية، ثورة وسائل التواصل الاجتماعي، وفي نسخة أكثر ابتذال وقصور فكري بثورة 2.0، باعتبار العلاقة العضوية بين الثورة ووسائل التواصل الاجتماعي، هذا الترابط الأنطولوجي الذي يقيم جوهره على الأنترنات، وجد أبطاله مدونين، استبدلوا بنادق الأمس بحواسيب اليوم، واستبدلوا المناشير بتدوينات افتراضية، يذهب البعض إلى اعتبار أنّ هذا النوع من الثورة هو عصيان وهمي، تنتهي حدوده عند انقطاع شبكة الأنترنات، والواقع أنّ هذا النوع من التلاعبة لا يعود إلّا بالأمس : فالبعض قال إنّ إضرابات سنة

1995 فيفرنسا كانت ممكنة بفضل الفاكس، وأنّ حركة ماي 1968

كانت بفضل لترنستور، وأنّ الثورة الفرنسية كانت بفضل الصحافة، إلخ .
كما لو أنّهم يحاولون تأسيس تفكيرنا السياسيّ على نظريّة مارشال ماركوكوهان كما عبّر جيل كيبال Gilles Kepel، فيما يذهب آخرون إلى صيرورة تاريخية، تنتج ظروفًا موضوعية لتأطير حركة اجتماعية عن طريق آليات سائدة، وهي ما يجعل الحركات الاجتماعية في تجدد دائم كما يذهب إلى ذلك تشارلز تيلي.

فكيف نتمثل الحركات الاجتماعية اليوم؟

وأي دور ومهمة يقوم بها المدونون في هذا السياق؟

هل استطاع المدونون حجز مكان لهم كفاعلين مؤثرين في خارطة الفاعلين الجدد؟

أي جدلية تقوم بين الحركات الاجتماعية والفضاء الافتراضي؟

التدوين والمدونون، ضرب إبداعي ثوري.

تذهب حياة عمامو، ومن ورائها هشام جعيط، إلى أن إقرار عمر بن عبد العزيز التدوين في بداية خلافته مثل نقطة جوهريّة في صيرورة التأريخ، وتجاوز المقاربة الشفوية نحو مقاربة تكون مكتوبة وما بات يعرف الآن بالمخطوطات، هذه المخطوطات حفظت تاريخ أمة بأسرها. يتشابه المدونون بحركة التدوين، لا من ناحية التقارب اللغوي كما نجده في لسان العرب لابن منظور، وإنما باعتبار أنّ لكلّ منهما خصوصيته الثقافية والسياسية، وتبعات هذا التدوين قلبت نظامًا بأسره وخلخلت أنظمة عربية.

سنحاول من خلال بحثنا الموسوم بعنوان "المدونون على مواقع التواصل الاجتماعي" التطرق إلى مدى تأثير وأهمية هذه الفئة لا على مواقع التواصل الاجتماعي فقط، وإنما انعكاس تصوّراتهم في الحراك الشعبي 17 ديسمبر/14 جانفي؟ هل المدونون التونسيون حركة أفقية أم يافطة لمجموعة من الناشطين والمعارضين يجمعهم هدف هو الثورة ووسيلة هي التدوين؟ أي راهنية تفضي إلى تأسيسها حركة المدونين؟ وهدفنا الأول والأخير في هذه الدراسة، هو فتح النقاش حول أفق احتجاجي يتجاوز الحركات الكلاسيكية نحو راهنية أخرى أفضت إلى إسقاط أنظمة تسلطية.

تطرح قضية الحركات الاجتماعية وآليات الاحتجاج الجديدة مبحثًا مهمًا لا بد من التعامل معه على أسس نقدية ومقاربات حديثة، ورغم أنّ دور المدونين على وسائل التواصل الاجتماعي حديث العهد - باعتبار أنه يعود إلى تاريخ نشأة شبكات التواصل الاجتماعي والأنترنت وتعميمها - إلا أن إرهابات دورهم وتبعاته كانت محوريّة سواء في الثورة التونسية أو المصرية، الأمر الذي حدا لاعتبار العديد من متابعي الثورة من نقاد ومحللين سياسيين بأنها ثورات رقمية.

ولأجل فهم أوضح لحركة المدونين، سنسعى من خلال هذا البحث إلى تناول فعالية نهار على عمار¹⁰³ التي قام بها العديد من المدونين التونسيين¹⁰⁴ ردًا على سياسة الحجب التي كان يقوم بها النظام السابق أو ما يعرف بعمّار 404¹⁰⁵. دور المدونين في التجييش خلال الثورة التونسية، ودورهم في الراهن السياسي الآن. هل يمكننا اعتبار المدونين فاعلين جدد، أم أنهم فاعلون سابقون للثورة التونسية وتغيرت وسائل نضالهم بتغير الظروف الموضوعية.

¹⁰³نهار على عمار: هي فعالية ضد رقابة الإنترنت شارك فيها عديد المدونين التونسيين من بينهم لينا بن مهني وفاطمة الرياحي وياسين العياري.

¹⁰⁴سنتناول في بحثنا هذا الجيل الأول من المدونين والذين يمكن اعتبارهم مؤسسين في المدونات التونسية ضد الرقابة والصنصرة وسياسات الحجب

¹⁰⁵عبارة رائجة في الوسط التونسي، وهي ترمز إلى شخصية كانت بارزة ضمن منظومة الشرطة الفنية وكانت مكلفة بغلق وحجب الصفحات والمنتديات التي تنقد النظام، وقد كانت مساهمة في حجب موقع يوتيوب، مواقع إباحية وغيرها من المواقع.



106

في معنى الحركة الاجتماعية:

يعتبر مفهوم الحركة الاجتماعية من أهم المفاهيم القديمة والتي تختزل في طياتها تصورات وتمثيلات عن النضال والصراع والتنازع والاحتجاجات. ويعتبر كتاب تشارليز تيلي¹⁰⁷

¹⁰⁶تتمينا منه للمشروع، وتقديرًا للمساهمة، فقد خصّنا z بحقوق نشر الرسوم الكاريكاتورية الموجودة هنا بشكل مجاني. والصور المرفقة بالدراسة، هي من قبله.
¹⁰⁷تشارليز تيلي، من أهم المنظرين في سوسيولوجيا الحركات الاحتجاجية.

الحركات الاجتماعية¹⁰⁸ من أهم الكتب التي قاربت مفهوم الحركة الاجتماعية، حيث يقرّ قائلًا: " لقد عادت كلمة "حركة" لتطرح نفسها بقوة على واقعنا الاجتماعي بصور وأداءات تبعث الأمل، وأحيانًا بتحميلات زائدة على ما تجسده من واقع، بل وأحيانًا أخرى بتصورات مغلوبة مصدرها الاستسهال والتحمس في إطلاق المصطلحات. وقد تم كل ذلك دون قدر كاف من التحليلات والكتابات سواء السياسية أو الاجتماعية "¹⁰⁹.

إن صياغة مفهوم الحركة الاجتماعية باعتباره مفهومًا إشكاليًا لا يخضع إلى مأزق نظري فقط، وإنما على صعيد التطبيق أيضًا. اختلفت تاريخيا الحركات الاجتماعية باختلاف السياقات التاريخية والظروف التي ساهمت في بلورتها ونشأتها. وأمام تعطش حقيقي لحركة اجتماعية ناقدة وهادفة تطرح تطلّعات ومشروعًا، أردت الإسهام في تناول المدونين التونسيين¹¹⁰ والإحاطة بتجربتهم والتي تحمل خلفها العديد من الأسئلة، من بينها الأفق الاجتماعي لهذه الحركة، أي توظيف أيديولوجي تستعمله، وأي أثر وتبعات لهذه الحركة.

الفاعلون، من هم؟ أي تمثّل للفعل؟

إن الطبيعة تأبي الفراغ، هكذا وضح أرسطو من خلال سياق فلسفي – ابستمولوجي معتبرًا أن الطبيعة تملأ كل ما حولها، ولو انطلقنا من هذا المأثور كمسلمة ضمنية، حول ضرورة بروز / نشأة / ظهور الفاعلين في إطار وجود دولة قامعة، مفهوم الفاعل في مقاربتة الفلسفية يأتي في تصوّره كفاعل (سلطة) وفاعل (معارضة)، " وحتى نخرج من هذه الخلط «المفاهيمي»، نحدّد مضمون مفهوم الفاعل السياسيّ الآن وهنا، بممارسة السلطة

¹⁰⁸ ظهرت الحركات الاجتماعية في الغرب في القرن الثامن عشر، ومنذ هذا الحين أضحت الحركات الاجتماعية الوسيلة الشعبية لممارسة السياسة في جميع أنحاء العالم. يقدم كتاب "الحركات الاجتماعية 1768 - 2004" نظرة شاملة على الحركات الاجتماعية في التاريخ بقصد الوقوف على أصل ممارسات وترابطات الحركات الاجتماعية المعاصرة من أجل المقرطة، وكذلك لمحاولة التنبؤ بالاحتمالات المستقبلية للحركات الاجتماعية. ويعرض الكتاب كذلك للتغيرات المستمرة في الحركات الاجتماعية على مستوى العالم، كتأثيرات التكنولوجيا الحديثة والعولمة، مركزًا على احتمالات ومدى كون تلك التأثيرات "حديثة"، كما يعرض أيضا لنشأة وتطور الحركات الاجتماعية التي نعرفها الآن، وأسباب فقدان أي من الحركات الاجتماعية لتأثيرها. كما يطرح الكتاب تساؤلات جوهرية ذات صلة مثل: "كيف تتحقق الديمقراطية على نحو حقيقي؟" وأخيرا يقدم الكتاب نظرة على علاقة الحركة من أجل التحديد، والمواطنة، ورأس المال وما إذا كان للحركات الاجتماعية تأثير حقيقي في الدول الاستبدادية.

¹⁰⁹ تيلي، تشارلز: الحركات الاجتماعية 1768 - 2004؛ ترجمة موسى وهبة، مصر - المشروع القومي للترجمة، 2005. ص 59.
¹¹⁰ سنتناول مدونة debatunisie المشهورة بالرسومات والكاريكاتوريات.

وبممارسة مقاومة السلطة، أو بكليهما معاً. ولنقلُ بدايةً إنّ الفاعل السياسي يتجسد في ممارسة السلطة/المقاومة في آنٍ كممارسةٍ للقوة، باعتبار أنّ السلطة/المقاومة منتشرة ومبثوثة في كلّ مكان وزمان عبر النسيج الاجتماعي والسيرورة التاريخية، وليست مُركزة في مكانٍ محدّد أو زمانٍ محدّد.

ومثل هذا التحديد يتناقض مع مسلماتنا السائدة عن السُلطة والفاعل السياسي؛ مسلماتنا التي تُسلّم بأمرين اثنين في هذا الصدد على الأقل: الأول هو التسليم بثنائية حاكم/محكوم؛ فيها الحاكم هو الفاعل والمحكوم هو المنفعل. أمّا الثاني فهو التسليم بمركزة السلطة في «الأشياء الكبيرة»، من عيار الدولة والرئيس والحزب والطبقة.. إلخ، والسخرية من فاعلين «صغار» ومنتورين يقاومون السلطة ومركّزتها.¹¹¹

إن الحاجة الملحة للحرية في ظلّ وضع يتّسم بالقمع والانغلاق دعت إلى بروز فاعلين جدد على الساحة النضالية بتونس، متجاوزين بذلك الصورة النمطيّة لتنظيمات المعارضة الكلاسيكية التقليدية من ائتلافات وجبهات وهيئات، هذه التنظيمات التي أثبتت عجزها وعدم جدارتها الثورية في مجابهة النظام القمعي وذلك نتيجة عجز تنظيماتها عن المواصلة في النضال لعدّة اعتبارات، من بينها غياب مراجعة نقدية لسردياتها وأفكارها وتكّس هيكلتها وعدم قدرتها على مجارات النظام من خلال صياغة تصوّر بديل له، هذا العجز في التجدد والذي أفرز شكلاً جديداً من الفاعلين هم المدونون. عن الفاعلين الجدد يقول الكاتب المغربي هشام بن عبد الله علوي¹¹² :

"الفاعلون التقليديون للتغيير . مناضلون نقابيون أو سياسيون، طلبة . يبدون أضعف من أي وقت. أما الفاعلون الجدد . أقليات جهوية أو لغوية، صحفيون، مثقفون مستقلون .

¹¹¹ غرز الدين، شوكت؛ عن الفاعل السياسي الآن وهنا، مجموعة الجمهورية لدراسات الثورة السورية، 6 ماي 2016، اطلعت عليه بتاريخ 24 - 04 - 2019.

<https://www.aljumhuriya.net/ar/34923>

¹¹² هشام علوي، كاتب وناشط مغربي، وينتمي إلى العائلة الحاكمة، من أبرز الداعين إلى تجاوز التنظيمات الكلاسيكية في المعارضة وترك المجال للتعبيرات السياسية الشبابية.

فيكافحون بصعوبة ليتوحدوا وليفكوا قبضة سياسة متسلطة ترسخت منذ مدة طويلة" لموند ديبلوماتيك أبريل 2008.

إن تبلور مفهوم الفاعلين، باعتباره مفهوماً يتجدد بتجدد صورة الفاعلين، فالمدونون في تونس، ونتيجة المسار والمجهود الذي قاموا به في تغطية الأحداث الاحتجاجية وفضح انتهاكات النظام وتوثيق الحركات النضالية ونشرها في العالم أجمع، جعلهم يتجاوزون بذلك المجال المحلي نحو إشعاع دولي، يتجاوز صداه ما كانت تقوم به العديد من المنصات والوسائل الأخرى كصحيفة الموقف¹¹³ وصحيفة الطريق الجديد¹¹⁴ وصحيفة مواطنون¹¹⁵ أو موقع نواة¹¹⁶. هذا السياق الذي توجب فيه بروز آلية احتجاجية تتخطى الجدران والحدود والرقابة، فبرز المدونون استجابة لهذا الوضع.

من الشارع إلى الأنترنت؟ من الأنترنت إلى الشارع؟ أو كيف أصبحت الاحتجاجات في عصر التكنولوجيا.

شهد العالم عشرات الاحتجاجات والإضرابات التي خلدها التاريخ البشري، وقد برزت بعض الساحات والميادين كأيقونة لهذه الاحتجاجات. وأثر تعميم الأنترنت وبروز وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك والتويتر واليوتيوب في تسهيل هذه الاحتجاجات، وأصبح تناقل المعلومة أسهل كثيرًا، "وهو ما يدعم تسميتها بثورة عصر ما بعد الحداثة أي عصر

¹¹³الموقف: صحيفة أسبوعية تونسية ناطقة بلسان الحزب الديمقراطي التقدمي، أدارها أحمد نجيب الشابي ويتولى رئاسة تحريرها رشيد خشانة. صدر عددها الأول في 12 ماي/أيار 1984 وكانت آنذاك جريدة أسبوعية ثم أصبحت تصدر كمجلة منذ 18 أكتوبر/تشرين الأول 1990، لتعود من جديد إلى جريدة سياسية أسبوعية.

¹¹⁴الطريق الجديد: هي الصحيفة التي أصدرها الشيو عيون التونسيون بعد السماح لهم بالعودة إلى النشاط في جويلية/تموز 1981. وقد صدر عددها الأول بتاريخ 3 أكتوبر/تشرين الأول 1981 ثم أصبحت لسان حال حركة التجديد وهي التسمية الجديدة التي اتخذها الحزب الشيوعي التونسي منذ أفريل/نيسان 1993. تعطلت عدة مرات خلال الثمانينات، أولها بين أكتوبر 1983 وأفريل/نيسان 1984. وصدر منها حتى جوان/حزيران 1988 274 عددًا. تعرضت في العديد من المرات إلى المصادرة من طرف السلطات الحكومية، من بينها ما حصل في فترة الانتخابات الرئاسية والتشريعية سنة 2009، كما تعرض مدير الصحيفة إلى عملية استجواب على إثر مقال ب"الطريق الجديد" بتهمة "نشر أخبار زائفة".

¹¹⁵مواطنون: هي صحيفة شهرية تونسية لسان حال التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات. وقد صدر عددها الأول في جانفي 2007. يديرها مصطفى بن جعفر ويتولى رئاسة تحريرها عادل الثابتي.

¹¹⁶نواة هي موقع إخباري تشاركي مستقل، عرف بمعارضته للنظام التونسي، وقد كان الموقع محجوبًا في تونس إلى حدود 13 جانفي 2011، تاريخ إصدار أمر بإلغاء حجب المواقع التي كانت محظورة مثل يوتيوب وغيرها من المواقع الإخبارية ومواقع التواصل الاجتماعي.

العلاقات الاجتماعية الجديدة الانسيابية، والمرنة، والأفقية، المشحونة بالمشاعر، والآنية، والانفعالات، والتي لم تخضع لصرامة العقلانية المتحكمة في السلوك أو البيروقراطيات الضابطة للمجتمع بما في ذلك بيروقراطيات الأحزاب السياسية والمنظمات النقابية نفسها إلى جانب بيروقراطية الدولة.¹¹⁷ لعبت مواقع التواصل الاجتماعي خلال الربيع العربي دورًا مهمًا في تعزيز موجات المظاهرات والاحتجاجات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 2010 و2012. لا يزال موضوع مواقع التواصل وتأثيره على الربيع العربي محطّ جدل كبير حيث يرى البعض أنها كانت ذات تأثير كبير فيما يرى آخرون العكس بدليل وجود عدد من المفارقات مثل قلّة الاحتجاجات في دولة البحرين والتي يتصلّ 88% من سكانها بالإنترنت (إحصاءات عام 2011) فيما نمت تلك الاحتجاجات في بلدان أخرى ضعيفة نسبيًا من ناحية انتشار النت مثل اليمن وليبيا¹¹⁸. وباعتبار أن هذه الوسائل كانت الوسيط بين الفاعلين (المدونين) والمتقبلين (الشعب) فقد أثرت هذه الوسائل التي يمكن اعتبارها فتحًا ثوريًا في مسار الحراك الاحتجاجي (17 ديسمبر 2010 – 14 جانفي 2011) متيحا الفرصة للمعلومة للتأثير والانتشار دون قيود ولا رقابة، فالإنترنت مثلت المجال الذي نشأ داخله نموذج جديد للمجال العمومي اهتزت فيه التراتبية الكلاسيكية القائمة على النخبة (العالمة والفاعلة) والجمهور (السلي والمتلقي). فالنماذج التواصلية الجديدة ليست منفصلة عن تحولات مجتمعية وسياسية وثقافية تعكس أزمة الديمقراطية التمثيلية القائمة على تلاعب النخب، ومراكز القوى الاقتصادية، وآليات الدعاية والتسويق بالحقل السياسي، والقدرة على تسييجه، في مقابل الاهتمام المتزايد لدى الفعّالين الجدد بكسر الطوق حول هذا الحقل ومساءلة الأنماط التقليدية للمشاركة

¹¹⁷حنين، ماهر: مجتمع المقاومة؛ ما بعد الإسلاموية، ما بعد البورقبيية، ما بعد الماركسية. كلمات عابرة – تونس، 2019 ص131.

118 Stepanova, Ekaterina (May 2011). "The Role of Information Communication Technologies in the "Arab Spring"" (PDF). pircenter.org/. 22-04-2019 اطلع عليه بتاريخ أبريل 2019.

السياسية، وآليات الشفافية والمحاسبة، ووقف الفساد، وشروط الاندماج الاجتماعي،
والعيش المشترك¹¹⁹

هذه الآلية السلمية التي برزت في الثورات العربية عموماً، وفي الثورة التونسية خصوصاً، لم تأت في سياق اعتباطي أو وليدة لحظة ما، بل كانت نتاج سيرورة نضالية، جعلت من المجتمع عبارة عن كتل سوسيلوجي رقمي على حد تعبير الباحثة بشرى جميل الراوي¹²⁰ أو بعبارة أدق "مجتمع افتراضي" وهذا التغير الذي اقتضته الظروف الموضوعية والذاتية على حدّ السواء، رسم تصوّراً مغايراً لآليات الاحتجاج المعتادة، من إضرابات واعتصامات، ورسم كذلك تغييراً جذرياً في البنى الفوقية، وذلك من خلال تغيير تمثّلات النضال عن طريق البيروقراطيات وطرق اشتغالها، متجاوزاً بذلك تقاليد المناشير واليافطات والشارات الحمراء، ليشكل وجهاً آخر للنضال كان الحظّ الأوفر فيه للشباب وبرز فيه العنصر النسائي، ويذهب المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش إلى التأكيد على هذه النقلة النوعية إذ يرى أنه "ثمة تغيير آخر حدث في ثوابت الذهنية السياسية والبنية العمرية تحت تأثير مواقع التواصل الاجتماعي: فانتفاضات الربيع العربي لم تعد بفضل التقنيات الجديدة المستحدثة تتم في العالم الواقعي التقليدي، بل أصبحت تُدار من العالم الافتراضي، قبل أن تتحوّل إلى فضاء الواقع، وهو ما وسّع من مساحة المشاركة السياسية. وبعد أن كانت الأحزاب السياسية العربية وزعمائها التقليديون في الغالب من فئة الكهول أو الطاعنين في السن، أصبح الشباب و"عمال المعرفة" خلال ثورات الربيع العربي يتولّون قيادة معركة التغيير عن طريق استخدام مواقع التواصل الاجتماعي بكل حرفية ومهارة، ما غير من "الثوابت" العمرية، وأبرز فاعلاً جديداً في المجال السياسي على مستوى البنية

¹¹⁹ الحمّامي، الصادق، المبدية الجديدة : الإستيمولوجيا والإشكاليات والسّياقات – المنشورات الجامعية بجامعة منوبة – تونس 2012 . ص ص 73 – 74.

¹²⁰ الراوي، بشرى جميل: دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير الاجتماعي / مدخل نظري، دورية الباحث الإعلامي، العدد 17، سنة 2012.

العمرية، وهي فئة الشباب، خاصة شباب البطالة المتعلمة، الحاملة لشهادات عليا، والتي كان ينظر إليها بمنظار الوصاية.¹²¹

المدونون، النشأة، السياق، الأهداف

من العالم الافتراضي، وجد المدونون الأرضية الملائمة للعصيان والتحريض والاحتجاج والمعارضة، خصوصًا وأن الحركات الاحتجاجية التي كانت تمارس في السابق، يواجهها النظام بالقمع والعنف والاعتقالات. فقد مثل الفضاء الافتراضي آلية أكثر أمنا واستقلالية لممارسة الاحتجاج، فالتفاعل بين المدونين والمجتمع من جهة، والمدونين فيما بينهم من جهة أخرى، أضحي بشكل أكثر سلاسة، الأمر الذي جعل من مقولة أنّ "المعلوماتية" تغير على نحو جوهري وتؤثر بقوة في العلاقات والمجتمعات صحيحة.، وإلى ذلك ساهمت مواقع التواصل كما يلاحظ "قتلوني"¹²² في كسر حاجز الخوف، وتشكيل التفاعل بين الشعوب، وكشف العيوب والأخطاء التي وقعت فيها الأنظمة السياسية وتوثيقها بالصور الثابتة والمتحركة، وتحولت إلى مصدر لوسائل الإعلام الكبرى والفضائيات " ¹²³ وما استعمال المواقع الاجتماعية، كأداة للنضال السلمي، إلا لاستغلالها بهدف الاستقطاب وتوجيه الرأي العام وإبراز الحقيقة التي تحجبها الوسائل الرسمية. في هذا الصدد يؤكد الصادق الحمامي على أن " موقع الفايسبوك لم يصمم ليكون منصة للتفاعل الثوري ولكنه يعكس البيئة السياسية لمستخدميه فإذا كانت تتميز بسياق يقوم على الاستقطاب الأيديولوجي والتنافر لن يقوم الفايسبوك بتغييرها. " ¹²⁴ وخلق مساحة افتراضية آمنة،

¹²¹ بوتشيش، إبراهيم القادري، أثر شبكات التواصل الاجتماعي في تغيير السلوك والعقليات: الربيع العربي نموذجاً، محاضرة ألقى ضمن فعاليات المؤتمر الثاني والأربعين للجمعية الدولية للتاريخ الاجتماعي، تحت عنوان " تغييرات الاتصال الاجتماعي في الزمان والمكان " مونتريال - كندا. ضمن ضقة ثالثة.

¹²² مصعب حسام الدين قتلوني، ثورات الفيسبوك، مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير، بيروت، شركة المطبوعات، الطبعة الأولى 2014، 256 صفحة
¹²³ الزبيدي، فاطمة: ثورات الـ"فيسبوك"، مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير، (مراجعة نقدية) مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 25 - 03 - 2014. اطلعت عليه بتاريخ 23 - 04 - 2019.
<http://v.ht/hahdhf>

¹²⁴ الحمامي، الصادق، صمّم الفايسبوك ليبتلع البشرية، مجلة ميم، 24 - 09 - 2017. اطلعت عليه بتاريخ 23 - 04 - 2019.

تنشط فيها مختلف الفئات السياسية والاجتماعية بمختلف مشاربها وطبقتها، جعل من هذه الوسيلة أشبه بالفيسفيساء، الأمر هذا يحيلنا إلى مسألة الاتصال السياسي في المجال العربي وتحديدًا لدور الفيسبوك في السياق الثوري وخاصة في مصر وتونس، الذي يتميز بالاستقطاب الأيديولوجي والتنافر السياسي. وقد شجع الفيسبوك في الكثير من الأحيان على الاستقطاب مما جعل الناس يعيشون في عزلة عن بعضهم البعض ولا يتفاعلون إلا مع أمثالهم، وهو ما خلق تماثلاً في المجال العمومي فعوض أن يكون مجالاً للتفاعل، أصبح مجالاً للانغلاق وبروز ما يعرف بـ"الفقاعات الأيديولوجية". ولكن هذا لا يعني أنه لا يتيح أشكالاً من التعبئة الاجتماعية والتفاعل السياسي¹²⁵.

لقد مثّل شعار المدوّنين اليافطة المثلى في تصوّرهم، حيث رفعوا شعار *Je blogue pour la liberté d'expression* كتعبيرة ثورية ونضالية ضد سياسة النظام الرسمية، وفي هذا الصدد يذهب ماهر حنين، إلى أن "فتح فضاء فيسبوك منذ 2006 شكل فرصة لتوفير أداة فعالة لتعبئة الرأي العام وصناعته. وفي هذا الإطار يستعرض أيمن الرزقي تطوّر هذا الاتجاه المتنامي للفاعل الافتراضي الجديد قبل الثورة من خلال المدونات و "البلوغوسفار" والمعركة التي كانت تخوضها المواقع الإخبارية المستقلة كنواة و تونزين وتونس نيوز والملاحقات التي كانت تستهدف المدوّنين. وقد شكّل الفقيد زهير اليحياوي بالنسبة لهؤلاء الشباب رمزا سياسيا مقاوما من أجل فكّ الحصار على الفضاء الافتراضي وتحدي الحصار ومناكفة الاستبداد"¹²⁶

<http://v.ht/bGkzs>

¹²⁵الصادق الحمادي: صمم الفيسبوك لبيتلغ البشرية، مجلة ميم، 24 - 09 - 2017
<http://v.ht/bGkzs>

¹²⁶حنين، ماهر؛ مجتمع المقاومة، كلمات عابرة، ص 132

السنة	2003	2004	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012	2013	2014
النسبة	6.49%	8.53%	9.66%	12.99%	17.10%	27.53%	34.07%	36.80%	39.10%	41.44%	43.80%	46.16%

Committed to connecting the world

قد يرى البعض أنّ تعميم استعمال الأنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي في تونس أدى إلى بروز المدونين، ولا ننكر دور الأنترنت في بروز المدونين وفاعليتهم في تعميم الحقيقة. ولكن ليس الأنترنت فقط، كما نرى في المرفق أعلاه، كان المدونون مواكبين للعديد من الاحتجاجات، ابتداء من القمة العالمية لمجتمع المعلومات في نوفمبر 2005¹²⁷ والتي وقع معارضتها من قبل العديد من الناشطين والفاعلين لقبول الحكومة التونسية ممثلين عن الكيان الصهيوني، هذا الاحتجاج يتزامن مع نسبة نفاذ للأنترنت من قبل المستخدمين في حدود 9.66%¹²⁸. أي ما يمثل عشر الشعب التونسي، وهذا ما يفند الرأي الذي يرى في تعميم الفيسبوك والأنترنت باعتباره الدور المركزي لنشأة المدونين، ولكن أيضاً الفراغ الذي خلقته عقود طويلة من العمل السلطوي المبرمج الهادف إلى تغييب السياسة في المجتمع وإقصاء أهلها، ثم ضعف الأحزاب المعارضة التي أنهكها القمع الشديد والاضطهاد، وأغلقت دونها نوافذ التفاعل مع الناس، عطفاً على ما تعانيه من أمراض ذاتية، كغياب روح المبادرة لديها، وتشتت إيقاع عملها الجمعي جراء حضور الحسابات

¹²⁷ بعض جماعات المجتمع المدني أعربت عن رفضها انعقاد مرحلة 2005 من القمة العالمية حول مجتمع المعلومات في تونس، باعتبارها بلداً به انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان. وجدت بعثة تقصي حقائق لتونس في يناير / كانون الثاني 2005 عبر مجموعة مراقبة تونس، وهو انتلاف من أربعة عشر عضواً في التداول الأممي لحرية التعبير، أسباباً جدية للقلق بخصوص الحالة الجارية لحرية التعبير والحريات المدنية في البلاد، ومن ضمنها القيود الفظة على حرية الصحافة والإعلام والنشر والآنترنت.

نشر الانتلاف تقريراً من ستين صفحة يوصي بخطوات تحتاج الحكومة التونسية لأخذها لوضع البلد على مستوى المقاييس الدولية لحقوق الإنسان. في لقاء اللجنة التحضيرية الثالثة بجنيف في سبتمبر / أيلول 2005، أطلقت مجموعة مراقبة تونس تحديثاً للتقرير والذي لم يجد أي تحسنات في موقف حقوق الإنسان.

¹²⁸ الإحصائية مأخوذة من الجدول المرفق أعلاه.

الأناية والمصالح الضيقة، كل ذلك وفر فسحة كبيرة لتقدم هذه القطاعات المحرومة والنشطة من المجتمع، كي تتقدم، بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عن الجموع لنقد الواقع البائس الذي تعيشه والاعتراض عليه، مبدية حماسة كبيرة للتغيير وحساسية مرهفة للدفاع عن حقوقها ومصالحها¹²⁹.



إن جمود الأحزاب، وتعاملها مع الراهن الآني بسرديات وأدبيات بائدة، انقضى على تاريخ صياغتها وبلورتها عشرات السنين، بالإضافة إلى التصورات النظرية التي كانت الأحزاب تسقطها على الراهن الآني، أدى إلى بروز ثقافة اتصالية جديدة قادها المدونون التونسيون

¹²⁹ Akram al-Bunni, Après la Tunisie et l'Égypte : Est-ce le rôle des partis politiques a diminué?, lieux communis , 09-02-2011/ 2019 - 04 - 23 - اطلعت عليه بتاريخ 23 - 04 - 2019 .
<http://v.ht/TmwU>

وعلى رأسهم لينا بن مهني، ولقد ولدت ثقافةً جديدةً غيرت أنماط سلوك النضال السياسي والاجتماعي من أجل الحرية ومقاومة الاستبداد، فقد صار نشطاء هذه المواقع يتبنون سياسة التغيير السلمي، أو ما يعرف بالتغيير الناعم، كإستراتيجية لإزاحة الأنظمة الديكتاتورية، بدلاً عن نظريات العنف المتمثل في الانقلابات العسكرية، والعنف الثوري الدموي المستوحى من النظريات اللينينية - الماركسية، وهي النظريات التي هيمنت على فكر وتوجهات أحزاب اليسار، والشارع العربي خلال العقود الأخيرة في معظم الدول العربية. فالمؤرخ لا يمكن أن يغفل أن التجمعات المليونية نحتت شعاراً سلمياً جديداً تعكسه عبارة "سلمية سلمية"، وكانت تتخللها استعراضات فنية وموسيقية ومشاهد فلكلورية، بل حتى احتفالات الخطوبة والزواج والحب... ولعلّ المنحى الذي نحتت بعض ثورات الربيع العربي نحو العنف، هو خارج تماماً عن طبيعة وروح الربيع العربي والأصوات المناضلة في منصات التواصل الاجتماعي، ولأيادي الثورات المضادة فيها نصيب وازن¹³⁰.

في هذا الصدد، رأينا استضافة¹³¹ للحديث معه حول هواجسه، خصوصاً وأنه كان من أبرز المدونين نشاعاً في تونس، وهو يدون في مدونته Debatunisie، يمثل Z أحد أهم أصوات المدونين في تونس، وذلك لأنه ينطلق من الصورة بما هي تعبيرة حسية للتعبير عن الواقع وانتقاده بسخرية، هذا التصور والذي يتجاوز فعل المحاكاة، جعل مدونته من أكثر المدونات متابعه في تونس.

Debatunisie مدونة تونسية، أنشأها - Z -¹³²، عرفت هذه المدونة بكونها الاستثناء، حيث لم تكن التقارير والتوثيق هدفها الأساسي، على الرغم من أنها تشترك مع المدونات الأخرى في انتقاد النظام والعائلة الحاكمة ومظاهر الفساد والقمع والمحسوبية والصنصرة. نتحدث مع الرسام Z مؤسس المدونة، والذي كان

¹³⁰ بوتشيش، إبراهيم القادري، أثر شبكات التواصل الاجتماعي في تغيير السلوك والعقليات: الربيع العربي نموذجاً، محاضرة ألقى ضمن فعاليات المؤتمر الثاني والأربعين للجمعية الدولية للتاريخ الاجتماعي، تحت عنوان "تغيرات الاتصال الاجتماعي في الزمان والمكان" مونتريال - كندا. ضمن ضقة ثالثة.

¹³¹ أجريت هذه المقابلة مع Z بتاريخ 28 - 04 - 2019، وقد وافق عليها بكل رحابة صدر، فله مني وافر الشكر على تفاعله على مقترحنا، وقد خصنا Z بالعديد من الصور المرفقة في هذه الدراسة، متخلياً عن حقوق الملكية.

¹³² Z هو اسم قلبي ومستعار لفنان كاريكاتور تونسي، وهو مؤسس مدونة denatunisie

ينشر نصوصًا مرفوقة بصور كاريكاتور منذ سنة 2007. هذه المدونة والتي نشأت في سياق معارضة ونقد المشاريع الضخمة التي كانت تنفذها شركة سما دبي، في ضفاف البحيرة، وقد اختار - Z - رسم النعام الوردي كشعار لمدونته، وذلك لأن المشروع المزمع إنجازَه كان يهدد النعام الموجود هناك. في حوارِه الذي خصّه بنا، يتحدث عن البدايات، كيف باشر في الكتابة ونشر التحاليل باللغة الفرنسية، "لقد كان الهاجس الأساسي الذي انطلقت منه المدونة هو الاهتمام بالشأن العام، وخصوصًا تزامنا مع انطلاق مشروع سما دبي، لقد كنت مهندسًا معماريًا، وعلى دراية بهذا المشروع وتبعاته وكيف كان يهدد البيئة" يقول Z مواصلا الحديث، بالإضافة إلى مشروع سما دبي، كان الجو العام وغياب حركية سياسية بوجوه شبابية ونسائية دافعا إضافيا للانضمام إلى المدونين في معركتهم ضدّ النظام، لم أكن أنتمي إلى أيّ حزب سياسي حينها، برزت فكرة الصور والكاريكاتور المرافقة للنص وذلك لأن التعاطي مع الصور كان أفضل من النصوص من جهة، ومن جهة أخرى، كان الفايسبوك يمثل فضاء إضافيا يمكن أن يقع تعاطي الكاريكاتور فيه بشكل أفضل. حيث أن الصورة هي التي تمثل الانطباع الأولي للمتلقي وتحفزه على متابعة قراءة النص. هذا الخيار يأتي في سياق غياب مصورين حرفيين وكاريكاتيريين يشتغلون على الصورة، حيث أن بن علي قضى على أي تصور جمالي معادٍ له وأفلسه¹³³، إضافة إلى احتقار مثل هذه المهن/ الهواية في المخيال الشعبي، الأمر الذي جعل من ثقافة الصورة في تونس ثقافة استهلاكية. لا نجد صورًا سوى كيافضة لإشهار أو ترويج لمسحوق تجميل، أضحت الرسوم صناعة استهلاكية. وواصلت الرسوم، أصبحت مدونتي تجذب العديد من المتابعين، ولا بد من التأكيد هنا على أمر مهم هنا، كانت مدونتي في البداية ضمن منتدى Tnblog وهو فضاء يضم جميع المدونين التونسيين، باللغة العربية والفرنسية، الأمر الذي جعل جمهورها مقتصرًا على فئة

¹³³ لم يكن z رسام الكاريكاتير الوحيد في تونس، ولكنه كان رسام الكاريكاتير المعارض الوحيد، وقد نبهنا إلى وجود رسامين مهمين للغاية في الحقبة البورقبيبية وكانوا ينشرون أعمالهم في الصحف المعارضة، من بينهم لطفي بن ساسي والشاذلي بالخامسة

محدودة بعينها، هي المدونون التونسيون، لتنتج فيما بعد على فئات مختلفة. وفي سنة 2008 أصبحت معروفا لانتقادي لبن علي وعائلة الطرابلسية. كانت حينها المدونة فاطمة أرابيكا¹³⁴ قد نقلت اثنين من رسوم الكاريكاتور التي أقوم بها لتعيد صياغتها إلى اللغة العربية وتنشرها في مدونتها، مما أدى إلى اعتقالها سنة 2009، إذ ظن النظام حينها أنها هي - Z - . أدركت حينها أنني أصبحت أمثل إزعاجا للنظام، مما جعلني أحيط عملي بسرية أكثر، لم أخبر أحدا بأنني كنت المشرف على المدونة، سواء قبل الثورة أو بعدها، ليس خوفا من النظام فقط، ولكن لأنه خيار شخصي.

¹³⁴فاطمة الرياحي، هي مدونة ومسرحية تونسية، كانت تنشط في مدونتها أرابيكا.



واصلت على نفس النسق، حتى بعد الثورة، لعدة اعتبارات من بينها أنني كنت أحب الصور والكاريكاتور، كنت أشتغل على نقد النظام والسلطة بكل شغف، وبسقوط نظام بن علي، كان جزء من السلطة قد سقط، لكن ليست كل السلطة، كان هناك حينها الباجي قائد السبسي الذي كان من رموز النظام السابق، وانتهكات من

السلطة، ومن الإعلام نفسه، انتقد وأصور رسوما حول قناة نسمة، الحوار التونسي، النهضة، السبسي، ورجال الإعلام شفيق جراية، كمال لطيف، مروان مبروك. بقي الشأن العام حاضرًا بقوة في أعمالي من خلال الواقع المعيش. وبدمقرطة استعمال الأنترنت، أصبحت ثقافة التدوين جزءا من الفسيفساء الاجتماعية والسياسية في المشهد التونسي، كثير من التونسيين أعجب بما كنا / كنت أقوم به، ولعل أهم ميزة كانت في المدونين أنهم لم يكونوا منخرطين في الأحزاب السياسية. كان تصوّرنا للأحزاب حينها على أنه يمثل عائقا أمام استكمال مشروعنا النقدي والتحرري، وأن الأحزاب مهما كانت أهدافها ستعيقنا عن إتمام مشروعنا. لا أنكر أنني كنت متأدلجًا في مرحلة ما مثل سائر المدونين، لكن كان تعاطينا مع الوضع بكل موضوعية. الأمر الذي جعل جمهوري جمهورا محايدًا كذلك. لم يكن جمهوري من المنخرطين في أحزاب المعارضة حينها. ورغم كل ذلك فكل مدون يعبر عن فكرة خاصة به، فكرة يصوغها من داخل أعماقه، فكرة يتمثلها بكل حرية، من أجل تصوّر للحرية والإنسانية والعدالة الاجتماعية، ولكن فكل فكرة عموما تمثل فئة سياسية / اجتماعية / أيديولوجية. ففي النهاية، أنا أعبر عن مقصودي ومقصود غير.

يتبين لنا من خلال هذه المقابلة العميقة مع Z- التصور والهدف والسياق الذي برز فيه كمدون تونسي، إن الشأن العام كان الهاجس الأساسي والمحرك والدافع الذي حدا به إلى إنشاء مدونته، إن الأسباب والدوافع الذاتية والموضوعية والتي تتغير بتغير الحالات والسياقات تجعلنا إزاء تجارب ثرية ومختلفة للمدونين التونسيين، ولكن الهدف رغم ذلك واحد، تقويض النظام التونسي السلطوي وكنسه وإرساء ديناميكية نقدية معارضة للنظام، تقوم على أسس ومنطلقات فنية وثقافية، فأغلب المدونين التونسيين من أصحاب الشهادت العليا وتكونوا في أرقى الجامعات التونسية، وهم من أوساط شعبية عموماً. هؤلاء

الناشطون في سياق افتراضي، تفتنوا إلى ضرورة نقل الصراع ضد النظام إلى فضاء يجيدون إدارته، وهو الأنترنت عن طريق المدونات والمنتديات. لقد طال الفضاء الافتراضي انقلاب للوظائف والمعاني ذلك أنّ الانقلاب الذي حصل هو أن الفضاء العمومي التواصلي الافتراضي أدّى إلى انشقاق سيرنيتيقي هام وخطير إذ بدل التواصل لفك النزاعات ظهر ضرب آخر من التواصل بصلب النظام القائم ويدعو للثورة عليه. إننا هنا إزاء فضاء مضاد¹³⁵ ، فضاء تواصلي عام بفضل التطور التكنولوجي للإعلام وبذلك لم يعد الفضاء الحوارية نخبويًا يتم في المقاهي وفي الجامعات بل أصبح منفتحًا على كل من له الإمكانيات في استعمال الآليات التكنولوجية كالأنترنت¹³⁶

لقد شهدت الأنترنت إقبالًا منذ سنة 1999، حيث وجد فيها الشباب والمعارضون منفذًا على العالم وفضاء موازيا يمكن أن يمارسوا فيه مواظنتهم بحريّة. لكنّ السلطة التي فوجئت بهذا الاجتياح غير المنتظر، قامت بتطوير أدواتها القانونية والمادّية لاحتواء الشبكة العنكبوتية في شبك مصادرتها ورقابتها. فبعثت جهازًا أمنيًا مختصًا في المعلوماتية "يسهر" على "الأمن الفكري" للتونسيين. إذ تعدّ تونس من أوائل دول المنطقة في إرساء قوانين تعتبر من أكثر القوانين المنظمة للأنترنت رديئة وقسوة. هذه القوانين لا تعتبر رديئة في ذاتها، ولكنها تشترك في منح صلاحيات واسعة جدًا وسلطات غير محدودة للإدارة العموميّة مع تضيق هامش الدفاع المتروك للمواطن.¹³⁷

في تقرير حول واقع الأنترنت في تونس، أكدّ التقرير أن النظام التونسي قد تفتن جيدًا إلى خطورة الأنترنت على مؤسسات حكمه، باعتباره فضاء يُلجأ إليه فأصبحت سياسة

¹³⁵ العبارة لنانسي فرايزر
¹³⁶ الرياحي، نعيمة، الفضاء العمومي والثورات، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، عدد مزدوج، 43، 44، خريف/ شتاء، 2016/

2017

¹³⁷ تقرير حول واقع الأنترنت في تونس، تقرير من إعداد مرصد حرية الصحافة والنشر والإبداع بتونس، موقع نواة. 08 - 01 - 2010، اطلع عليه بتاريخ 23 - 04 - 2019.

<http://v.ht/GKuug>

الحجب والمصادرة سائدة وبصفة ممنهجة عن طريق الوكالة الفنية للاتصالات¹³⁸ ليصبح الفضاء الافتراضي فضاء مقاومة وصراع بين النظام والمعارضة، ورغم أن مشاركة المعارضة السياسية كانت محدودة على الفضاء الافتراضي إلا أن ذلك لم يمنع النظام من مراقبة الأنترنت واحتكاره من قبل شركة اتصالات تونس. إن هوس النظام بمراقبة أي نفس معارض من جمعيات ونقابات وهيئات غير حكومية، حدا بها إلى إخضاع الفضاءات العمومية للأنترنت للمراقبة publinet فتخضع بدورها إلى رقابة مشددة وإلى كراس شروط مجحفة. فمسير الفضاء "يلتزم بالسهر على أن يكون محتوى الصفحات المشاهدة من قبل الحريف مطابقا للمعايير المرخص فيها من قبل الوكالة التونسية للأنترنت، كما أنه مطالب "بالمراقبة عن بعد لمحتوى البريد الإلكتروني لحرفائه¹³⁹". وفي سياق تبرير هذا القمع والصنصرة والحجب، صرح أسامة رضاني¹⁴⁰، أنّ "أغلبية المواقع المحجوبة هي مواقع مجهولة الهوية تهدف إلى تحطيم وتشويه السمعة الشخصية للأفراد وتتضمن تهديدات صادرة من منظمات إرهابية.. والحجب يأتي من رغبة الحكومة في حماية الشعب من الحض على الشر."¹⁴¹

ورغم هذا الحجب، إلا أن وتيرة فضح النظام وكشف انتهاكاته ازدادت وتيرتها، وقد لعب المدونون الحلقة الأقوى في هذا التوثيق. أصبح مدى حضور الناشطين في الأنترنت معياراً لمدى فاعليتهم وإثبات وجودهم وتدعيم حضورهم، ولئن كان هذا الحضور ضئيلاً نسبياً أمام عدد المشتركين والمنخرطين في الأنترنت، إلا أنهم نجحوا في تنظيم العديد من الفعاليات والتظاهرات. ورغم أن مفهوم التدوين والمدونين تم تجاوزه بعد انفتاح

¹³⁸ كانت مهمة هذه الهيئة حجب المواقع الإباحية ومواقع التي تنبث الفيديوهات كيو تيوب، ومواقع الأحزاب والمدونات، وكانت تلقب بعمار 404 من قبل المعارضين.

¹³⁹ تسريب: نجيب الضاوي المدير العام الجديد للمصالح الفنية يتحدث عن "عمار 404"، نواة: 05 - 12 - 2015، اطلعت عليه بتاريخ: 25 - 04 - 2019

<http://v.ht/2SeXS>

¹⁴⁰ أسامة رضاني، المدير العام لوكالة الاتصالات الخارجية التونسية
¹⁴¹ تعليق أمام لجنة حقوقية دولية حول قيام السلطات بحجب المواقع الإخبارية والحقوقية في تونس

الفايسبوك وتويتر على نشر التغريدات والمواقف وبعض التحاليل. عادة تعامل الكتابات والتغريدات من هذا النوع على أن تأثيرها يظهر في عدد "الإعجابات" ولكن هذا المقياس ضعيف وربما كانت التعليقات علامة أكثر مصداقية. في التعليقات نقاش وتبادل وتفاعل مما يغير من طبيعة العلاقة بين صاحب الموقف ومن يتفاعل معه. ثمة مفهوم المؤثر influencer وذلك عن طريق الأنستاغرام مثلاً.

وجب التأكيد في النهاية، أن الانترنت والمدونين كان لهم حضور جزئي في السياق الثوري بزخمه، ولا يمكن حجب مختلف النضالات الأخرى والفاعلين الآخرين، ولكن لست مع التصور السوداني الذي يرى بكل دغمائية أنّ الضمور الفكري والأيدولوجي للثورة بغياب أفق أيدولوجي يرافقها، جعل من المقاربة الماركسية هي الأكثر حضوراً في تأويل الثورة، وتغيب الانترنت والمدونين والناشطين والفاعلين الجدد، إن هذا الرأي الحاضر بقوة لا يقل سداجة عن الرأي الآخر الذي يرى فيها ثورة رقمية متناسياً نضالات المثقفين والنقابيين والناشطين السياسيين خلال عقود.

ولكن، في جميع الأحوال فهم لا يقومون إلا بأن يسقطوا على الشعوب المنتفضة نقائنا السياسية، قصورنا عن التفكير في التطورات السياسية. ويبدو أنّ ضمورنا الفكري، المشبع بعقود ثلاثة من البلاغة "المعادية للكليانية" والليبرالية، قد جعلنا عاجزين عن التشكيك في أطر هذا التفكير "الضعيف" الذي يتكيف مع الواقع دون أن يسعى حقاً إلى فهمه فما بالك برفضه. من وجهة النظر هذه، تمثل البلاغة عن "ثورة الفايسبوك" - أو، الأسوأ أيضاً عن "ثورة 2.0" - التعبير الأكثر سطحية والأكثر إثارة للسخرية عن هذا الضعف الفكري. يتم اعتباراً فصل مجال من التكنولوجيا ("الشبكات الاجتماعية" الالكترونية) عن بقية الواقع الاجتماعي ويتم تحويله إلى محرك سري يقدر إرادة الناس السياسية. إن الجوانب الأكثر تخطيطية للمتخيل المحب للتكنولوجيا تنتصب بمثابة "الأنطولوجيا" للاجتماعي والسياسي التي تعتقد أنها قادرة على استبدال المسألة السياسية بهذه المسيحية المادية

الجديدة.¹⁴² يتعلّق الأمر، بطبيعة الحال، بغوغائية تُستخدم لتجنب المسألة السياسية تخصيصاً بأن تسمح بتقليم حركات الانتفاضات على التكنولوجيا الغربيّة. والواقع أنّ هذا النوع من التلاعب لا يعود إلى أمس : فالبعض قال إنّ إضرابات سنة 1995 في فرنسا كانت ممكنة بفضل الفاكس، وأن حركة ماي 1968 في فرنسا كانت بفضل الترانزستور، وأنّ الثورة الفرنسية كانت بفضل الصحافة، إلخ. كما لو أنّهم يحاولون تأسيس تفكيرنا السياسيّ على نظرية مارشال ماك لوهان.¹⁴³

خاتمة:

لقد لعبت مواقع التواصل الاجتماعي خلال الربيع العربي دوراً مهماً في تعزيز موجات المظاهرات والاحتجاجات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بين عامي 2010 و2012. لا يزال موضوع مواقع التواصل وتأثيره على الربيع العربي محطّ جدل كبير حيث يرى البعض أنّها كانت ذات تأثير كبير فيما يرى آخرون العكس بدليل وجود عدد من المفارقات مثلاً قلّة الاحتجاجات في دولة البحرين والتي يتصلّ 88% من سكانها بالإنترنت (إحصاءات عام 2011) فيما نمت تلك الاحتجاجات في بلدان أخرى ضعيفة نسبياً من ناحية انتشار النت مثل اليمن وليبيا. ولا يمكن التغاضي أبداً عن دور المدونين سواء في الفترة الممتدة بين 2005 – 2010، أو خلال المسار الثوري 17 ديسمبر / 14 جانفي . أو من ما بعد الثورة إلى حدود كتابة هذه الأسطر. ولا يمكن تعاطي مسار المدونين من خلال ورقة بحثية واحدة،

¹⁴² Kippel, gilles, Les soulèvements arabes face au vide occidental, l'exemple tunisien : introduction générale, lieuxcommuns, mardi 24 -05 -2011.

<https://collectiflieuxcommuns.fr/?490-les-soulevements-arabes-face-au>

¹⁴³ جيل كيبال: الانتفاضات العربية في مواجهة الفراغ الغربي: المثال التونسي، ترجمة منتصر الحملي، منارات، الملحق الثقافي لجريدة الشعب، أكتوبر 2017.

ورغم صعوبة المهمة وغياب دراسات جادة حولهم، إلا أن ما قام به الفقيه زهير اليحياوي سيظلّ شمعة تضيء درب المتعطشين إلى الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية، وقد نسج على منواله العديد من المدونين والناشطين. إضافة إلى الحركة التي اتسم بها المدونون، فقد كانت تمثل الوجه الشبابي والنسوي للمعارضة التونسية، من خلال ما قاموا به.

ما الذي يجمع فسيفساء تشتت قطعها لكنها في نظر بحوثٍ علمية تراها ملتئمة ومجمعة ومتناسقة؟ كيف لبحوثٍ مُماثلة أن تُقرأ مجتعة رغم فرادة كلِّ إشكالية على حدة؟ إشكاليات تُقارب واقعا متشابها ومختلفا تتحدّ فيه أصداده وتتفرق في آن؟ كيف لنا أن نبحث عن تشخيص واقع مماثل؟ واقع فيه فنّان راب من هوامش المدينة يُغني ليحتجّ على مركزية الحقّ في الحياة، وحركة احتجاجية هامشية تعادي التهميش بفعل جماعي يلغي من ألغاه ولو كان من مسانديه. واقع فيه شباب "أولتراس" يتنبؤون بالثورة ولا تعنيهم صيرورتها، وباحثون يتفاجؤون بها فينخرطون في فعل ينشد تحقيقها! فيه مُدوّنون يناضلون في شبكة عنكبوتية ضدّ نظام سقط رأسه فصار كأرملة سوداء! وحملات أفقية في فعلها تنتشر كجذمور في بيئة احتلتها أشجار السلطة التي لا تثمر وفتّانون يجعلون الفضاء العام مكانا لرفض الواقع، الواقع برّمته. واقع فيه أساتذة غادر طباشيرهم الأقسام ليحتجّ في الشوارع، عمال في مصانع الظل لا ضوء يُسلط على نضالاتهم، مُهرّجون يجعلون البوليس يبتسم ويعوّضون مناظليهم أتعبتهم كلاسكية احتجاجهم وأحزنتهم في آن! واقع ترسمه صحراء الكامور بوشائج أولية تنتخب فاعلين عاديين لكن بفعل لم تعتده السلطة، واقع تُصوّره مشاهد جرّرات في جندوبة تغادر حقلا لتذهب إلى حقل آخر: من الحقل الفلاحي إلى الحقل الاحتجاجي! وواحات جمنة التي تحتجّ فيها الدقلة في عراجينها مطالبة بالحقّ في الأرض

47 شارع فرحات حشاد، العمارة «أ»، الطابق الثاني 1001 تونس
الهاتف : +216 71 25 76 64 الفاكس : +216 71 25 76 65
contact@ftdes.net - Contact@ostunisie.org

